مجلة دراسات في اللّغة العربيّة وآدابها، فصليّة محكّمة، العدد ٢، صيف ١٣٨٩ هـ ش، ٢٠١٠ م

أنواع البديع في العصر المملوكي
(عددها وتقسيم بعض أنواعها)

د.علي حيدر*

الملخص

ربما كان من أصعب الأمور على دارس علم البلاغة في العصر المملوكي، أن يستطيع حصر أنواع «البديع» الذي كان سمة مميزة للذوق الأدبي في هذا العصر.

ويبدو أن أصحاب البديع اختلفوا في عددها وفي أنواعها وفي تسمياتها، ولم يتفقوا على أهميتها ودورها في العملية الإبداعية. لذلك يقوم هذا البحث بمحاولة فهم أسباب هذا الاضطراب من خلال مقارنة بين أهم الكتب التي تناولت هذا الموضوع، كذلك يعرض لأهم الأنواع البيانية والبديعية التي تعرضت للتقسيم والتفريع مما جعل الإلمام بها أمراً في غاية الصعوبة.

كلمات مفتاحية: بديع – أنواع – تقسيم – مملوك – اضطراب.

مقدمة:

بدأ القرن السابع الهجري بظهور كتابين في علم البلاغة كان لهما تأثير واضح في مؤلفات العصر المملوكي، الأول كتاب «مفتاح العلوم»[١] لأبي يعقوب السكاكي[٢] (ت٦٢٦هـ) والثاني «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»[٣] لابن الأثير الجزري[٤] (ت ٦٣٧ هـ).

---

* أستاذ في قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة تشرين .

١ ــ نعتمد في هذا البحث إصدار دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧ م .

٢ ــ ترجمته في مقدمة كتاب «مفتاح العلوم» .

٣ ــ نعتمد في هذا البحث إصدار مطبعة نهضة مصر التي حققها وقدم لها أحمد الحوفي وبدوي طبانة – الطبعة الأولى، ١٣٧٩هـ – ١٩٥٩ م .

٤ ــ ترجمته في وفيات الأعيان، ٥: ٣٨٩ – ٣٩٧، وفي مقدمة كتابه «المثل السائر»

اشتهر الكتاب الأول «ولاسيما القسم الثالث منه» بأنه أول كتاب قام بتبويب علم البلاغة وتنسيق أنواعه، إذ جعل البلاغة علمين : علم المعاني وعلم البيان، ثم ألحق البديع بهما ،لأنه علم لا يؤثر في فصاحة الكلام وبلاغته، بل هو يزيده حسناً .

بينما عرض ابن الأثير في كتابه، الذي جاء في مقدمة ومقالتين، لفنون الكتابة وأركانها، ثم تناول اللفظ المفرد[٥]، واللفظ في السياق[٦]، ذاكراً من خلال ذلك أنواعاً بديعية تختص باللفظ المفرد، وأنواعاً أخرى تتناول تركيب الكلام وفصاحته وبلاغته، من غير أن يشير إلى أنها تختص بعلم المعاني، أو علم البيان.

أهمية البحث وأهدافه :

تكمن أهمية هذا البحث في الوصول إلى بعض أسباب تعقيد علم البلاغة في العصر المملوكي.

منهجية البحث:

اعتمد البحث على المنهج التكاملي.

عدد أنواع البديع :

حوالي منتصف هذا القرن «السابع الهجري» ظهر كتاب «بديع القرآن»[٧] لابن أبي الإصبع المصري[٨] (ت ٦٥٤ هـ). يوضح هذا الكتاب تطور ظهور كثير من الأنواع البديعية، لأن المؤلف يشير في مقدمته إلى أنه جمع كتابه اعتماداً على ستة وثمانين كتاباً نص عليها بالاسم، وأنه جمع في كتابه«تحرير التحبير»[٩] مئة وستة وعشرين نوعاً بديعياً، ثم أفرد منها ما يختص بالقرآن الكريم في كتابه هذا، فكان لديه

---

٥ ــ المثل السائر، ١: ٢١٠– ٤١٤ .

٦ ــ المصدر السابق، الجزءان الثاني والثالث.

٧ ــ قدم له وحققه حفني شرف، مكتبة نهضة مصر – الطبعة الأولى، ١٣٧٧هـ – ١٩٥٧ م .

٨ ــ ترجمته: فوات الوفيات، ٣٧٤/١، وشذرات الذهب، ٥: ٤٣٩. ومقدمة كتابه «بديع القرآن»، ٦٧–٩٦ .

٩ ــ لم نجده مطبوعاً وقد أشار إليه محقق كتاب البديع وذكر أنه مخطوط رقم ٤٦٥ بلاغة دون الإشارة إلى مكانه .

مئة وثمانية أنواع بديعية، أخذ منها سبعة عشر نوعاً عن ابن المعتز[١٠]، وأخذ ثلاثة عشر نوعاً عن قدامة بن جعفر[١١] وأخذ تسعة وأربعين نوعاً عمن جاؤوا بعد قدامة[١٢]. أما باقي الأنواع، وهي اثنان وثلاثون نوعاً، فقد ادعى أنها من اختراعه ولم يسبقه إليها أحد. لكن الحقيقة أن معظم هذه الأنواع موجودة عند أسلافه بأسماء مختلفة، أو مشابهة في دلالتها وغرضها البديعي، لكن هذا لا ينفي أهمية هذا الكتاب، فقد صار مصدراً يعتمده أهل البديع، حتى إن السيوطي[١٣] (ت ٩١١ هـ) أخذ عنه هذه الأنواع، واعتمدها في كتاب «لإتقان في علون القرآن»[١٤] .

في منتصف القرن الثامن الهجري، نجد أن أنواع البديع قد بلغت في بديعية صفي الدين الحلي مئة وخمسة وأربعين نوعاً[١٥]. وهذه البديعية كانت إحدى أربع بديعيات قارن بينها ابن حجة الحموي[١٦](ت ٨٣٧هـ) في القرن التاسع، فكان من هذه المقارنة كتابه المشهور «خزانة الأدب وغاية الأرب»[١٧] .

هذا التفاوت الكبير بين عدد أنواع البديع التي جاءت عند السكاكي وابن الأثير، تلك التي جاءت عند ابن أبي الأصبع، وتكررت عند الحلي وابن حجة الحموي من بعده، يظهر بوضوح ميل الذوق الأدبي والنقدي في العصر المملوكي إلى اختراع الأنواع البديعية، وإلى الإسراف في تقسيم هذه الأنواع وتفريعها، حتى أصبحت الإحاطة بها وفهمها أمراً صعب المنال، ويمكن رد ذلك إلى سببين أساسين هما:

١- اختراع الأنواع البديعية وإدخال أنواع ليست من البديع:

جعل السكاكي علم البلاغة في علمين اثنين هما علم المعاني وعلم البيان، وألحق

١٠ ــ بديع القرآن، ١٧- ٦٤، تبدأ بالاستعارة وتنتهي بـ «حسن الابتداءات» .

١١ ــ المصدر السابق، ٦٥- ٨٧، تبدأ بـ «صحة الأقسام» وتنتهي بـ «الإيغال» .

١٢ ــ المصدر السابق، ٩٣- ٢٣١. أولها «الاحتراس» وآخرها «التوءم» .

١٣ ــ ترجمته: بخط يده في مقدمة كتابه «الإتقان»، ١: ٤-٥ و٦-٧ .

١٤ ــ نعتمد طبعة منشورات الرضي – زاهدي بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم في أربعة أجزاء .

١٥ ــ ديوان الحلي، ٦٧٦ – ٧٥٠ هـ. فيها سبعة أنواع من الجناس ثم في كل بيت نوع بديعي محدد .

١٦ ــ ترجمته، شذرات الذهب، ٢١٩/٧، وفي «الأدب العربي في العصر المملوكي والعثماني»، عمر موسى باشا، ١: ٤٩٤ – ٥٠٨ .

١٧ ــ نعتمد طبعة دار القاموس الحديث للطباعة والنشر – بيروت – صدرت في مجلد واحد بأوراق من القطع الكبير.

بهما فنون البديع بوصفها فنوناً تحسن الكلام لكن لا تؤثر في فصاحته وبلاغته. هذا التقسيم اتبعه جماعة ولاسيما القزويني (ت ٧٣٩هـ)، وشرّاح التلخيص[١٨]، مما يفسر قلة أنواع البديع عندهم.

لكن بعض الأدباء والنقاد في العصر المملوكي ومنهم ابن أبي الإصبع وابن حجة الحموي لم يتبعوا هذا التقسيم واستخدموا مصطلح «البديع» استخداماً مطابقاً لعلم البلاغة.

هذا يفسر كثرة الأنواع البديعية التي ذكروها، لذلك نجدهم قد أدرجوا التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية في أنواع البديع، وهي من أركان علم البيان، كذلك أدرجوا الحذف، والمبالغة والالتفات وغيرها ،وهي أنواع تدخل في علم المعاني أي في الإيجاز والإطناب.

أي أن هؤلاء لم يعترفوا بتقسيم السكاكي، وظلوا على استخدام مصطلح البديع الذي كان سائداً قبل السكاكي، والذي كان يعني الإبداع الفني، وليس بمفهوم العصر المملوكي الذي جعل البديع أنواعاً تحصى في النص من غير أن ينظر إلى تأثيرها الفني فيه.

كذلك أدخل هؤلاء في البديع ما ليس منه، مثل «السهولة» و«الرقة»، و«الانسجام»[١٩].

وهي أحكام نقدية لا تطلق عادة على فقرة نثرية أو بيت شعري، بل تطلق على نصوص كاملة أو إنتاج كامل لأحد الأدباء. كذلك جعلوا من الأبيات الشعرية التي تحمل شيئاً من الحكمة وتسير بين الناس نوعاً بديعياً سماه ابن حجة «إرسال المثل»، وجاء باسم «التمثيل» عند ابن أبي الإصبع[٢٠]. وجعل ابن حجة «الأحاجي والألغاز» نوعاً بديعياً، وكان ابن الأثير قد سبقه إلى ذلك[٢١]، ولكن هذا النوع هو ظاهرة فنية تتعمد الغموض مما يجعلها لا تحسِّن الكلام، وهي مخالفة أصلاً لمفهوم الفصاحة والبلاغة.

---

١٨ ــ«تلخيص المفتاح» للقزويني ومن أشهر شراحه القزويني نفسه، وسعد الدين التفتازاني وبهاء الدين السبكي.

١٩ ــ خزانة الأدب، ص ١٨٩– ١٩٠ .

٢٠ ــ المصدر السابق، ص ٣٤٠، وبديع القرآن، ص ٨٤– ٨٨ .

٢١ ــ المثل السائر ، ٣ : ص٨٤ – ٩٥ .

ولكثرة أنواع البديع وجد أهله حالات يتنازعـــها أكثر من نوع بديعي، فسمى ابن أبي الإصبع هذه الحالة «الإبداع»[٢٢]، ونسب لنفسه فضل اكتشافها، بينما أطلق عليها ابن حجة اسم «المشوش»[٢٣].

لذلك نجد عندهما حالات يعلقان فيها على فقرة أو بيت، فيستخرجان من أنواع البديع ما يزيد على عدد ألفاظه .

٢ــ التقسيم والتفريع في النوع الواحد:

وسنتناول أشهر الأنواع التي خضعت لذلك، بادئين بـــ «التورية»[٢٤]، أو «الإيهام» أو «التوجيه» وهي من مابعد قدامة بن جعفر، فقد وردت في «العمدة» لابن رشيق وفي بديع ابن منقذ، وقال عنها الزمخشري: إنها «باب في البيان ليس هناك ألطف منه ولا أنفع ولا أعون على تعاطي تأويل المتشابهات في كلام الله ورسوله».

وإذا كان الجميع يتفقون على تعريفها بأنها لفظ مشترك يقصد الأديب منه المعنى البعيد، بينما يكون المعنى القريب الذي يتبادر إلى ذهن المتلقي غير مقصود، فإنهم اختلفوا في شواهدها.

فابن الأثير الجزري ذكرها في كتابه «المثل السائر» فيما سماه «المغالطات المعنوية»[٢٥] ورأى أنها أحلى ما استعمل في الكلام و ألطفه لما فيه من التورية، ويرى أنها نوعان:

المغالطة المثلية: وهي التي تقع في اللفظ المشترك وشاهده قول المتنبي:

برَغم شَبيبٍ فارقَ السيفُ كفّهُ وكانا على العلاتِ يَلتقيانِ

كأنّ رقَابَ الناسِ قالَت لسيفهِ: رفيقُكَ قَيسيٌّ وأنت يماني

---

٢٢ ــ بديع القرآن ،ص ٣٤٠ – ٣٤٣ ، و كرره «الإتقان في علوم القرآن» ، ٣:ص ٣٣٠ – ٣٣١ .

٢٣ ــ خزانة الأدب ،ص ٧١ .

٢٤ ــ وردت في العمدة ، و بديع ابن منقذ ، و في «المثل السائر» ، ٣ : ٧٦ – ٨٣ ، و «مفتاح العلوم» ، ٤٢٧ ، و «التلخيص» ، ٣٥٩ – ٣٦٠ ، و«بديع القرآن» ، ١٠٢ – ١٠٣، و «الإتقان في علوم القرآن» ، ٣ : ٢٨٥ – ٢٨٧.

٢٥ ــ المثل السائر ، ٣:ص ٧٦ – ٨٢ .

فقد وقعت التورية في لفظ «يماني» الذي يشير إلى الرجل المنسوب إلى اليمن، وإلى السيف المصنوع في اليمن. وقد أورد ابن حجة الحموي هذين البيتين شاهداً على التورية، ورأى أنهما أول شاهد وقع عليه أصحاب البديع في التورية[٢٦].

أما المغالطة الضدية: فهي تقع في لفظ من الأضداد، أي يحمل معنين متضادين. ومن الشواهد التي يسوقها ابن الأثير قول أحدهم :

وَخَلَطتُمُ بعضَ القُرآنِ ببَعضِهِ فَجَعَلتُمُ الشعراءَ في الأَنعامِ

ومن الواضح أن الشاهد لا يشير إلى تضاد في لفظ «الشعراء» أو لفظ «الأنعام» فهما يدخلان في المشترك اللفظي، الشعراء جمع شاعر، وسورة الشعراء، وكذلك الأنعام التي تربى لفائدة الإنسان، وسورة الأنعام.

والشاهد الثاني الذي يسوقه ابن الأثير قول أحدهم ، وهو وارد في لسان العرب في مادة «نفق»:

وَمَا أَشياءُ تَشريها بمالٍ فَإِن نَفَقَت فأَكسَدُ ما تكونُ

ويذكر أن «نفق» بمعنى راج، ونفقت الدابة ماتت. وهذا الشاهد أيضاً لا يحمل معنى التضاد، فنفوق الدابة ورواجها يعني ذهابها ونفادها، والسلعة حين تروج تنفق في الأسواق. وأعتقد أن هذا الشاهد يدخل في باب الأحاجي و الألغاز وليس في باب التورية.

أما الشواهد الأخرى فقد تداولها أصحاب البديع وكرروها، ومن أشهرها الشاهد الذي نقله السيوطي عن الزمخشري، وهو قوله تعالى: «الرَّحمَنُ على العَرشِ استَوَى» وقد كرره السكاكي، ونقله القزويني عنه وذكره ابن أبي الإصبع و السيوطي في نهاية العصر المملوكي[٢٧]. وهو الشاهد على التورية «المجردة» أي ليس فيها ما يشير إلى المعنى القريب أو البعيد. أما التورية «المرشحة» التي فيها لفظ يلائم المعنى القريب فهو قوله تعالى: «وَ السماءَ بَنيناها بِأَيدٍ» في الشاهد الأول وقعت التورية في «استوى» الذي له معنى قريب وهو الاستقرار بينما المعنى البـــعيد هو «الاستيـــلاء». والشاهد

---

٢٦ ــ خزانة الأدب ، ص٢٣٩ ومابعدها .

٢٧ ــ بديع القرآن ،ص ١٠٢– ١٠٣ . الإتقان في علوم القرآن ، ٣ :ص ٢١٧ – ٢٨٥ . و التلخيص في علوم البلاغة ،ص ٣٥٩ – ٣٦٠ . و الآية طه ٥ .

الثاني وقوع التورية في«اليد» التي تعني الجارحة وهو المعنى القريب، ورشحه هذا المعنى قوله «بنيناها»، بينما المعنى البعيد هو «القدرة».

ومن الملاحظ أن هذين الشاهدين يندرجان في باب المجاز المرسل ،لأنهما لا يحملان معنى الاشتراك اللفظي، فاستوى يتضمن معنى الاستقرار لكنه لا يتضمن بالضرورة معنى الاستيلاء. أما اليد فليس من معناها القدرة بل هي من لوازمها.

ولا يندرج هذان الشاهدان في باب التورية إلا إذا أخذنا بتعريفها الذي جاء به السيوطي في آخر العصر المملوكي، إذ عرّفها بأنها لفظ له معنيان، إما بالاشتراك وإما بالتواطؤ أو بالحقيقة أو المجاز[٢٨]، وهذا التعريف يوسع مفهوم التورية ويدخل فيها ما ليس منها، لأن التواطؤ هو عرف لغوي، وقد يكون فقهياً، و الحقيقة و المجاز هما أوسع بكثير من مفهوم التورية .

كانت التورية في عصر ابن حجة تياراً أدبياً، ونوعاً بديعياً يتنافس فيه المتنافسون، وشغلت التورية ما يقرب من ربع كتاب ابن حجة «خزانة الأدب»[٢٩].

وقد أسرف هذا الأديب الناقد في الاستشهاد بشواهد عن التورية من إنتاج معاصريه، ولم يكتف بذكر التورية المرشحة التي تتضمن ما يشير إلى المعنى القريب غير المقصود، بل زاد أيضاً التورية المبينة وهي التي تتضمن إشارة إلى المعنى البعيد. ثم زاد في تقسيماتها بحسب ورود اللفظ الذي يشير إلى أحد المعنين هل هو قبل التورية أو بعدها. وهكذا أصبحت التورية فناً بديعياً فيه كثير من التفصيل والتفريع فزادت غموضاً واتساعاً.

ولم تسلم الأنواع الأخرى ولاسيما المشهورة منها من اختلاف أهل البديع فيها. فمن ذلك الاستعارة التي كانت من أكثر الأنواع بحثاً وتصنيفاً واختلافاً في التقسيم، بدءاً من «البيان والتبيين» للجاحظ، و«قواعد الشعر » لثعلب وانتهاء بـــ «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي.

يرى ابن الأثير أن حدّ الاستعارة هو طي المستعار له وذكر المستعار مع وجود مشاركة بين طرفي الاستعارة «المستعار له والمستعار منه»، ووجود قرينة تشير إلى

---

٢٨ ـــ الإتقان في علوم القرآن ، ٣ :ص ٢٨٥ . و الآية : الذاريات ٤٧ .

٢٩ ـــ خزانة الأدب ،ص ٢٣٩ – ٣٦٥ ، وهذه الصفحات تعادل ربع الكتاب .

وقوع المجاز. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: «أَلَم تَرَ أَنّهم في كُلِّ وادٍ يَهيمون» فاستعار الأودية للفنون، ويبدو أن ابن الأثير لا يعترف إلا بالاستعارة التصريحية. أما الاستعارة المكنية وغيرها من أنواع المجاز فيعدها من باب التوسع في الكلام، لذلك فإن قول امرئ القيس:

فَقلتُ له لمّا تَمَطَّى بِصُلبهِ وأَردَفَ أَعجازاً وناءَ بِكَلكَلِ

ليس من الاستعارة لأن الليل مذكور سابقاً.

وكذلك قوله (ص):«هَذا جَبَلُ نُحبُّهُ وَيُحبّنا» هو من التوسع في الكلام لأنه لا مناسبة بين الجبل والمحبة[٣٠].

أما معاصره السكاكي فقد جعل الاستعارة تصريحية و مكنية، ثم قسّم التصريحية إلى تحقيقية لأن المشبه المحذوف متحقق حساً وعقلاً، و تخيلية لأن المشبه المحذوف محض خيال ومن شواهدها «المنية وأظفارها ، ونطقت الحال» وهو هنا يخلط بين التصريحية والمكنية. ثم جعل للتصريحية قسماً ثالثاً، كما يقتضيه المنطق وهو النوع الذي يحتمل التحقيق والتخييل.

ثم يذكر الاستعارة المكنية ويكرر شاهديه اللذين ذكرهما في نوع التصريحية التخييلية[٣١]. ثم قسمها إلى أصلية وتبعية وفق جمود لفظها أو اشتقاقه[٣٢]. ثم ذكر تقسيماً آخر وفق مايرافق الاستعارة من ألفاظ تشير إلى أحد الطرفين، فهي مرشحة إذا كان هناك لفظ يشير إلى المشبه به، ومجردة إذا كان فيها لفظ يشير إلى المشبه.

ووفق المنطق هناك نوع ثالث خالٍ من الإشارة إلى أحد الطرفين، ويقصد الاستعارة المطلقة دون أن ينص على ذلك بالاسم.

ويختم السكاكي الحديث عن الاستعارة بالحديث عن أنواعها وفق المحسوس

---

٣٠ ــ المثل السائر،٢: ص ٧٠ – ١١٥، وهوالنوع الأول في المقالة الثانية (في الصناعة المعنوية) يميز الاستعارة من التشبيه المضمر الأداة ، يبين الفرق بين الاستعارة و التشبيه وفي ص٨٣ يتناول حد الاستعارة ، ثم يناقش أقوال الآخرين فيها ولاسيما أقوال ابن سنان الخفاجي في «سر الفصاحة » ، وهو يجعل الاستعارة درجات جيدة ، ووسط ، ورديئة . الشعراء: الآية ٢٢٥ . أما الحديث فلم نقع عليه في الصحيحين (مع ملاحظة ٣١) .

٣١ ــ مفتاح العلوم ،ص ٣٧٣ – ٣٧٤ .

٣٢ ــ المصدر السابق ،ص ٣٨٠ – ٣٨١ .

والمعقول، ويعد منها خمسة أنواع[٣٣]، وقد خصص القزويني، بدوره، صفحات لدراسة الاستعارة، وذكر ما جاء عند السكـــاكي ولم يوافقه في بعض مـــا جاء به من تقسيمات للاستعارة[٣٤]. ونجد ما يشبه هذه التقسيمات عند ابن حجة الحموي[٣٥]، وعند السيوطي الذي تحدث عن أركان الاستعارة وعن الفرق بينها وبين التشبيه البليغ. وقال إن أقسامها كثيرة، فمن حيث أركانها الثلاثة (المستعار له والمستعار منه والجامع بينهما) قسمها إلى أقسام وفق المحسوس و العقلي. ثم أضاف: إنها وفق لفظها، فهي أصلية إذا كان اللفظ الذي وقعت فيه جامداً، وتبعية إذا كان مشتقاً، وهي مكنية إذا حذف المشبه به، وتصريحية إذا حذف المشبه.

في تقـــسيم آخر هي وفاقية إذا كان وقوع الاســـتعارة ممكناً، وعنادية إذا كان وجودها مســـتحيلاً. ثم هي مرشحة إذا اقترنت بما يشير إلى المســـتعار منه، ومجردة إذا اقترنت بما يلائم المســـــتعار له، ومطلقة إذا خلت من الإشارة إلى أحد الطرفين[٣٦]. ويختم الحديث عن الاســـتعارة بذكر الاســـــتعارة التمثيلية باعتبار وجه الـــــشبه المنتزع من متعدد.

وكان للتـــشبيه أيضاً نصيبه من التقـــسيم و التفريع. وهو من أقدم الأنواع البديعية تناولاً فهو موجود في«الكتاب» لسيبويه، ولم يغفله كتاب في البلاغة بعد ذلك [٣٧].

ذكره ابن الأثير، ورأى أن التشبيه والتمثيل شيء واحد. ثم قسم التشبيه المضمر الأداة إلى أقسام خمسة حسب وقوعه في الجملة وجعل المثل المضروب آخرها التشبيه التمثيلي أو الاستعارة التمثيلية.

ثم قسم التشبيه إلى أربعة أقسام: تشبيه معنى بمعنى، وتشبيه صورة بصورة، تشبيه معنى بصورة، وأخيراً تشبيه صورة بمعنى. ثم ذكر أن كل قسم من هذه الأقسام يقسم بدوره إلـــى أربعة أقسام وهي: تشبـــيه مفرد بمفرد، ومـــركب بمركب،

---

٣٣ ــ المصدر السابق ،ص ٣٨١ – ٣٨٧ ، ٣٨٨ – ٣٩٨ .

٣٤ ــ التلخيص في علوم البلاغة ، ص٣٢٤ – ٣٣٥ .

٣٥ ــ خزانة الأدب ، ص٢٣٩ – ٣٦٥ ، وهذه الصفحات تعادل ربع الكتاب .

٣٦ ــ الإتقان في علوم القرآن ، ٣ :ص ١٤٨ – ١٥٨ .

٣٧ ــ بديع القرآن ، ص٥٨ – ٦٣ .

ومفرد بمركب، ومركب بمفرد. وأشار في الختام إلى أن هناك درجات للتشبيه من حيث بلاغته[٣٨].

أما معاصره السكاكي فقد كان أكثر حرصاً على تقسيم التشبيه تقسيماً منطقياً، فقد قسمه من حيث طرفاه إلى طرفين حسيين أو طرفين عقليين أو عقلي وحسي، أو حسي وعقلي.

وقسمه أيضاً من حيث وجه الشبه إلى واحد و متعدد، والواحد إلى حسي وعقلي، والمتعدد إلى متعدد في حكم الواحد وهو حسي أو عقلي أو مختلط. ثم أغرق في التقسيم فقسمه وفق الغرض منه وهي أقسام كثيرة متعددة .

ثم ذكر أحوال التشبيه من حيث قربه أو بعده. وأخيراً ذكر مراتب التشبيه وفق أركانه الأربعة (مشبه ومشبه به وكلمة التشبيه، ووجه الشبه) ورأى أن التشبيه التام الأركان[٣٩] لا قوة فيه، وأن التشبيه البليغ الذي تسقط فيه الأداة ووجه الشبه هو أقواها.

وقد كرر القزويني في «التلخيص» ما ذكره السكاكي على نحو مختصر، وذكر تقسيمه من حيث طرفاه وفق الحسي والعقلي، ثم ذكر تقسيمه من حيث وجود أركانه ولاسيما وجود الأداة ووجه الشبه، وتلا ذلك تعدد أحد طرفي التشبيه، وختم الحديث عن التشبيه بالقول: إن أعلى مراتب التشبيه في قوة المبالغة هو التشبيه الذي يحذف فيه الأداة ووجه الشبه ويقصد التشبيه البليغ. ثم يذكر حذف أحد طرفي التشبيه أي الاستعارة، ويرى أنه لا قوة لغيرهما[٤٠].

وتكرر الحديث عن ذلك عند ابن حجة الحموي في «خزانة الأدب». وقد تناوله السيوطي أيضاً في «الإتقان في علوم القرآن» وذكر تقسيمات مشابهة لما ذكره سابقوه وقسمه باعتبار طرفيه إلى حسي وعقلي، وباعتبار وجه الشبه إلى مفرد ومركب. وما ينتج من ذلك من تقسيمات. وقد قسمه أيضاً باعتبار ما تقع عليه الحاسة ومالا تقع عليه. أما بالنظر إلى أركانه فجعله مؤكداً بحذف الأداة، ومرســلاً بحذف وجه الشبه،

---

٣٨ ــ المثل السائر ، ٢ : ص ١١٦ – ١٧٠.

٣٩ ــ مفتاح العلوم ، ص ٣٢٩ – ٣٤٩.

٤٠ ــ التلخيص في علوم البلاغة ، ص ٢٣٨– ٢٩١

وبليغاً بحذف الأداة ووجه الشبه، ومقلوباً عند عكس التشبيه أي بتشبيه الأقوى بالأضعف[٤١].

ولعل«الجناس» أو «التجنيس» من أهم الأنواع البديعية التي تشهد على كَلَفِ أصحاب البديع بالتقسيم والتفريع والغموض أيضاً ولاسيما في العصر المملوكي.

هو نوع بديعي قديم ألف فيه الأصمعي، وذكره ابن المعتز، ولم يخلُ ذكره من كتب البلاغة وإعجاز القرآن[٤٢] وعلى الرغم من أن هذا النوع البديعي يختص بالناحية الصوتية و الموسيقية للنص، ولا علاقة له بالناحية المعنوية، فإنه كان من أكثر الأنواع تعقيداً نظراً لكثرة تفريعاته واختلاف تسمياته يذكر ابن الأثير أن أهل البلاغة اختلفوا في التجنيس، في تسمياته وفي ترتيبه. ويرى أن التجنيس الحقيقي هو اللفظ المشترك لأن شرطه اتفاق اللفظ واختلاف المعنى. ويذكر أن بعضهم يجهل ذلك فأدخل في التجنيس ما ليس منه، ثم يذكر أنواعاً تشبه التجنيس[٤٣].

أما السكاكي فرأى أن الجناس هو تشابه الكلمتين في اللفظ ولم يشترط اختلاف المعنى، مما يوحي بأنه يمكن أن يدخل فيه التكرار اللفظي ورد العجز على الصدر. وأخذ السكاكي في ذكر أنواع الجناس الذي اختلف فيه اللفظان بحرف واحد، وعرض شواهد لموقع هذين الحرفين في أول اللفظين أو في وسطهما أو في آخرهما وغير ذلك، ثم ذكر ما يُلحق بالجناس[٤٤]، وقد أخذ عنه القزويني تعريف الجناس لكنه كان مختلفاً عنه في التقسيم والتفريع والتسميات، وأهم ما فعله القزويني أنه جعل الجناس التام ثلاثة أنواع هي: التام، والتام المماثل، والتام المستوفى.

ثم صنف بقية أنواع الجناس، وأخذ الملحق بالجناس عند السكاكي. لكن الاختلاف في التسميات جعل الأمر غامضاً على الرغم من أن نوع الجناس واحد[٤٥].

وفي «بديع القرآن»[٤٦] يرى ابن أبي الإصبع أن الجناس أصلان. جناس مزاوجة،

---

٤١ ــ خزانة الأدب ، ص ١٨٣– ١٨٩ ، الإتقان في علوم القرآن ، ٣: ص١٤٢– ١٤٨.

٤٢ ــ بديع القرآن ،ص ٢٧

٤٣ ــ المثل السائر ، ١: ص٣٤٢ – ٣٦٠ .

٤٤ ــ مفتاح العلوم ، ص٤٢٩.

٤٥ ــ التلخيص في علوم البلاغة ، ص ٣٨٨ – ٣٩٢ .

٤٦ ــ بديع القرآن ، ص٢٧ – ٣٠.

وجناس مناسبة، يتفرعان إلى عشرة فروع، منها ما هو لفظي ومنها ما هو معنوي.

وعنده تخلط أسماء الجناس ودلالاتها فمن ذلك ما يسميه جنـــاس المزاوجـــة وهو من المعنوي، ويمثل لذلك بقوله تعالى: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا»[٤٧] ويرى أن لفظ «سيئة»الثانية سميت سيئة للمزاوجة. كما يذكر جناس المناسبة وهو من اللفظي ومن أمثلته «فَأَقِم وَجهَك للدّين القَيِّمِ»[٤٨] وهذا الشاهد جعله السكاكي من الملحق بالجناس نظراً لاختلاف أصل الاشتقاق فيه. أما بقية الأنواع ففيها أسماء متماثلة لما ذكره الآخرون لكن بدلالات مختلفة.

وعلى الرغم من أن السيوطي قد أخذ كثيراً عن ابن أبي الإصبع فإنه في نوع «الجناس»[٤٩] يخالفه في التسميات و التعريف، فقد اشترط أن يكون الجناس تماثلاً في اللفظ واختلافاً في المعنى، ولا يجوز أن يكون أحد اللفظين حقيقة و الثاني مجازاً، فلابد أن يكون الجناس، إذاً، لفظاً مشتركاً. وهويكرر كثيراً من أنواع الجناس ويختمها بنوع يسميه تجنيس الإطلاق وهو أن يجتمع اللفظان في المشابهة ومن أمثلته: «وَجَنَى الجَنّتَينِ»[٥٠]«وَلِيُرِيَهُ كَيفَ يُواري»[٥١]. وهذا النوع كما هو واضح ،هو الملحق بالجناس عند السكاكي و القزويني. وقد ذكر ابن حجة الحموي في «خزانة الأدب»أنواعاً مشابهة لما ذكره هؤلاء في موضوع الجناس، واختلفت عنده بعض التسميات لبعض أنواع الجناس، لكن ابن حجة الحموي انفرد في إدخال الجناس الذي هو تماثل صوتي يخدم موسيقا النص في غير مجاله، عندما أضاف أنواعاً من الجناس تتعلق بمعنى النص وليس بموسيقاه من ذلك ما أطلق عليه اسم «الجناس المعنوي»[٥٢] الذي يعرّفه بأنه إضمار ركني التجنيس، و المجيء بما يرادف المضمر للدلالة عليه.

وشاهده على هذا النوع قول ابن عبدون، وقد اصطبح بخمر ترك بعضها إلى الليل فصارت خلاً:

---

٤٧ ــ الشورى ، ٤٠.

٤٨ ــ الروم ، ٤٣.

٤٩ ــ الإتقان في علوم القرآن ، ٣: ص ٣١٠ – ٣١٤.

٥٠ ــ الرحمن ، ٥٤.

٥١ ــ المائدة ، ٣١.

٥٢ ــ خزانة الأدب ،ص ٤١ – ٤٢.

أَلا في سبيلِ اللَّهوِ كَأسُ مُــدامــةٍ أَتَتنا بطَعمٍ عَهدُهُ غَــيرُ ثــابتِ
حكَت بِنتَ بِسَطامِ بنِ قَيسٍ صَبيحَةً وَأمسَت كجسمِ الشّنفَرى بَعدَ ثابتِ

وكان اسم بنت بسطام الصهباء، والشنفرى قال:

فَاسقِنيها أَيَا سَوادَ بنَ عَمروٍ إِنّ جِسمي مِن بَعدِ خَالي لَخَلُّ

ويرى ابن حجة الحموي أن هناك جناسين مضمرين الأول بين الصهباء بمعنى الخمر، والصهباء بنت بسطام، والثاني وقع في «خل» بين الخلّ بمعنى المادة الحامضة، و الخل بمعنى الرقيق المهزول.

وقد ذكر الصفدي البيت الأول في معرض حديثه عن أبيات المعاني. وليس عن الجناس. لكنه يضيف أن بنت بسطام هي الصهباء. وذكر أيضاً بيت الشنفرى المذكور آنفاً[٥٣]، ولا يخفى أن هذا النوع من الجناس يتجاوز الألغاز والأحاجي في غموضها، ولاشك في أنه من صنع أدباء قد تفرغوا لمثل هذه الأمور التي تدخل النص الأدبي في غموض يصعب إيضاحه.

ولم يكتف ابن حجة بذلك، بل ذكر نوعاً آخر من الجناس وهو ما يسميه «جناس الإشارة»[٥٤] ويعرفه بأنه محاولة الناظم أن يجانس بين لفظين، فلا يوافقه الوزن فيلجأ إلى مرادف للفظ الأول. وشاهد هذا النوع هو قول امرأة من عقيل أراد قومها الرحيل:

فَمَا مَكَثنا، دَامَ الجَمالُ عَلَيكُما بِثَهلانَ إلا أَن تُشَدَّ الأَباعِرُ

أرادت أن تجانس بين الجَمال والجِمال، فأرغمها الوزن والروي على ذكرالأباعر بدل الجِمال.

ويضيف ابن حجة نوعاً ثالثاً وهو «جناس الكناية»[٥٥] ويمثل لذلك بقول أحدهم:

وَتَحتَ البَراقِعِ مَقلوبُها تَدُبُّ على وَردِ تِلكَ الخُدود

فكنى عن العقاربِ بمقلوبها التي هي البراقع .

٥٣ ــ الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، ٢: ص ٣٧٢ .

٥٤ ــ خزانة الأدب ، ص٤١ – ٤٢.

٥٥ ــ المصدر السابق ،ص ٤١ – ٤٢.

الخاتمة والاستنتاجات:

وهكذا نجد أن كلف أصحاب البديع بالتفريع والتقسيم وإطلاق الأسماء وابتكار الأنواع البديعية قد أخرج علم البلاغة، ولاسيما علم البديع، عن مساره، وأضحى ميداناً معقداً غامضاً. ولو اكتفى هؤلاء بجعل الجناس تماثلاً صوتياً، أو لو اكتفوا بنوع الجناس التام في اللفظ المشترك وكل ما خالف ذلك سمي جناساً ناقصاً، ولو اكتفوا بدراسة التورية من حيث المغالطة المعنوية أو الإيهام، ولو اقتصر أمر الاستعارة على ما جاء به الجرجاني من حيث تأثيرها في النص، وكذلك بالنسبة للتشبيه، لوفر ذلك على الباحثين كثيراً من العناء والجهد.

المصادر و المراجع :

١ــ ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، الطبعة الأولى، مكتبة نهضة مصر، مصر، ١٣٧٧ هـــ ــ ١٩٥٧ م.

٢ــ ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، الطبعة الأولى، مطبعة نهضة مصر، مصر، ١٣٧٩ هـــ ــ ١٩٥٩ م.

٣ــ ابن حجة الحموي، تقي الدين، خزانة الأدب وغاية الأرب، دار القاموس الحديث للطباعة و النشر، بيروت، من غير رقم طبعة ولا تاريخ .

٤ــ ابن خلكان، شمس الدين، وفيات الأعيان، دار صادر، بيروت، بلا تاريخ .

٥ــ ابن العماد، عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتبة التجارية للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، بلا تاريخ.

٦ــ الحلي، صفي الدين، الديوان، دار صادر، بيروت.

٧ــ السكاكي، يوسف، مفتاح العلوم، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـــ ــ ١٩٨٧ م .

٨ــ السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، منشورات الرضى، زاهدي، من غير تاريخ ولا طبعة.

٩ــ الصفدي، صلاح الدين، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥ هـــ ــ ١٩٧٥ م.